نوابغ الفكر العربي

١٩

ابن قتيبة

بقلم الدكتور محمد زغلول سلام

عالم فقيه وأديب نقاد ذواقة خصب الفكر عظيم الإنتاج . روى ابن تيمية عن أهل المغرب أنهم كانوا يقولون :
«كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه . . .»

دار المعارف بمصر

الفصل الأول

عصر ابن قتيبة

١ - الحالة السياسية

عاش أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى عصر بنى العباس ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وولد على عهد المأمون بن الرشيد ، أيام كانت الدولة العباسية وهى فى أوج مجدها وازدهارها ، قد امتدت سيطرتها إلى أطراف الصين والهند شرقاً وإلى شواطئ المحيط الأطلسى غرباً - باستثناء دولة الأغالبة والأدارسة بإفريقيا .

وكان المأمون يستعين بجماعة من الرجال الأقوياء ، اعتمدت عليهم دولته ، واستقرّ بهم ملكه أمثال طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، والفضل بن سهل . وقد بلغ من قوة آخرهم ، واتساع نفوذه أن أشيع أنه تغلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده ، وأنه كان يبرم الأمور على هواه . ولم تكن هذه الشائعة فيما يبدو إلا جزءاً من ذلك الصراع الذى استفحل بعد موت الرشيد بين العرب والفرس على السلطان ، واتخذ صورة عنيفة فى حركة الفتنة بين الأمين والمأمون ، وفى سلسلة الاضطرابات والحروب الأهلية بين الهاشميين والعلويين أبلى فيها قواد المأمون بلاء حسناً ، كما ظهرت فى كثير من الفتن التى كانت تثور هنا وهناك فى أنحاء مختلفة فى مثل فتنة أبى السرايا فى الكوفة ، وقد انتهت باستيلاء هرثمة بن أعين عليها ، فقتل أبو السرايا زعيم الفتنة ، وصلب ببغداد سنة ٢٥٠ هـ ؛ وكفتنة نصر بن شيث الثائر العربى الذى غلب على شمال العراق والشام . وكانت دعوته قائمة على أساس الانتصار للعرب من تغلب الفرس على الخلافة ، وكان يقول : « إنما حاربتهم - أى بنى العباس - محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم »[١] .

---

(١) « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢١٧ .

والذى يظهر من بين تلك الفتن جميعاً ، ويميز ذلك العصر إنما هو فتن الطالبيين وثوراتهم ، فكان لهم فى مكة إمام هو محمد بن جعفر الصادق ، تجمعوا حوله وانتصروا له ، وقام فى اليمن بعض ولد عقيل بن أبى طالب ، وقد تعرضت دولة المأمون لضرباتهم فى كل مكان ، وحفـّت بها الأخطار ، فلم تترك ثورتهم مكاناً إلا استعرت نارها فيه ، وامتدّ لهبها إلى بغداد عاصمة الخلافة امتداده إلى البصرة والكوفة وبعض العواصم الأخرى .

واجه المأمون كل تلك الأحداث مجتمعة أو متتابعة ، فما لان لها ولا تخاذل ، بل واجهها جميعاً ، وعالجها بالقوة حيناً وبالحكمة والسياسة حيناً آخر . وكان من حسن سياسته أن اختار لولاية عهده على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق — ثامن أئمة الشيعة الاثنى عشرية — ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، ولبس الثياب الخضر زىّ العلويين ، وذلك ليهدئ ثوراتهم المندلعة ، وليكسبهم إلى جانبه . فأغضب هذا جماعة أهل السنّة ، واعتبره المسعودى المؤرخ من زلات المأمون ، وثار لذلك جماعة من أهل بغداد وبايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدى عم المأمون .

وعندما تخلص المأمون من العلويين ، وخفت وطأة ثوراتهم ، أقلع عمّا كان قد ذهب إليه ، فعاد إلى السواد لباس آبائه وأجداده .

وقاوم المأمون طغيان العنصر الفارسى بانتقاله من مَرْو إلى بغداد ليرضى العرب ثم بتدبيره — فيما يقال — قتل الفضل بن سهل ليتخلص من نفوذه ، وليحدّ من غُلَواء الفرس بعد أن استأثروا بشؤون الخلافة وأمور الدولة وكادوا أن يحجزوه عن شعبه وسلطانه .

واستتب الأمر للمأمون بعد وقت عصيب ، فأمسك بصولجان الخلافة فى قوة واقتدار . واتجه إلى التنظيم الداخلى والبناء فى شتى أنحاء ملكه ، وأصبحت بغداد فى عصره موئل العلماء والأدباء ، ومجلى مظاهر الحضارة الزاهرة . وكان لشخصية المأمون وأخلاقه أثر كبير فيما كسبته البلاد من إصلاح وازدهار . فقد كان رجلاً عاقلاً ، كريم الخلق ، محبـّاً للعلوم والآداب ، مشجـّعاً للعلماء والأدباء ممـّا سبـّب تلك النهضة الكبرى فى ضروب المعرفة ، وفى علو شأن الفكر وقيام كثير من الحركات الفكرية من مثل حركة المعتزلة التى آمن بها المأمون وشجـّعها

وقـرّب علماءها ، ومكـّن لهم فى بلاطه ودولته ، وعاونهم على معارضيهم من أهل السنّة معاونة أدبية وماديّة ، فشجع طرقهم فى المناظرة والجدل ، ودعا إلى احترام آرائهم ، كذلك قويت حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية فأكسبتها ثروة كبيرة ، ووسعت آفاق الفكر الإسلامى ، وكانت لها آثارها البعيدة المدى فى التراث الفكرى العربى .

وكان من وزراء المأمون جماعة من الفضلاء البارعين فى العلم والأدب ، والكتابة أمثال أحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن يوسف الكاتب البليغ ، وعمرو بن مسعدة ، ويحيى بن أكثم التميمى وقد كان من المقربين إليه المستشارين فى مهام الأمور ، وكان فى أصفيائه أيضاً الفقيه الحكيم العالم ثمامة بن أشرس المتكلم ذو الحظوة والرأى لديه .

وتوفى المأمون ، وأعقبه أخوه المعتصم ، تولى سنة ٢١٨ هـ ، وكان قائداً شجاعاً جريئاً ، تمت فى عهده كثير من الانتصارات العظيمة ، ومنها انتصاره على إمبراطور الروم وفتح عمورية الذى خلده أبو تمام فى قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ فى حدّه الحدّ بين الجدِّ واللعبِ

وانتصاره على بابكِ الخرمى ، وأسره وصلبه .

وسار المعتصم على النهج الذى سار فيه سلفه المأمون فى تشجيع العلم والأدب وتقريب المشتغلين بهما ، كما استمر فى تعضيده للمعتزلة ، واتخذت سياسته فى مؤازرته لهم طابع القوة ، ممّا دعا كثيراً من أهل السنّة ومن ورائهم العامة إلى التذمر ، ففى عهده حدثت محنة خلق القرآن المشهورة والتى راح ضحيتها كثيرون وتعرض للأضطهاد والتعذيب آخرون من علماء أهل السنّة وكان بينهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف .

وكان المعتصم رجل حرب ، ولم يكن له دهاء المأمون ولا حكمته ، فوجـّه اهتمامه إلى الجيش ، فعزّزه ، واجتلب له الجند الأتراك ، لما عرف عنهم من القوة ، وشدة المراس فى الحرب . ولكن لم تلبث تلك السياسة حتى أدّت إلى غلبة الأتراك على الجيش ثم على مراتب الدولة ، فأصبحت القيادة فى أيديهم ، وكان التنافس بينهم شديداً ، فاضطربت الأمور واختلـّت ، ومهـّد ذلك للانحلال

والضعف الذى طرأ على الخلافة من بعد والذى بدأ بقتل المتوكل ثم بسلسلة من الاضطهاد والعزل والقتل تعرض لها الخلفاء بعده .

وكان من نتائج ضعف السلطة المركزية فى بغداد – والممثلة فى الخلافة – أن قلّت هيبتها وتقلص نفوذها على الأطراف ممّا أطمع كثيراً من الأمراء والحكام فى الاستقلال والخروج على الخلافة . ومن هؤلاء آل طاهر والسامانيون والصفاريون فى الشرق والطولونيون فى مصر .

ولقد وزر للمعتصم جماعة من المشهورين مثل محمد بن عبد الملك الزيات الأديب الشاعر ، وأحمد ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وكان يرى رأى المعتزلة ويتعصّب للعرب . ولم تطل خلافة المعتصم أكثر من تسع سنوات ، فتوفى سنة ٢٢٧ هـ وتولى بعده الواثق .

وفى عصر الواثق (٢٢٧ هـ – ٢٣٢ هـ) اشتد نفوذ القواد الأتراك ، وعلى رأسهم أشناس ، وثار على الدولة أعراب بنى سليم قرب المدينة ، وبنو هلال وبنو نمير باليمامة .

وكثرت مصادرة الأموال فى عهده ، حتى إنه صادر أموال جماعة من الكتّاب .

وجاء بعده المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) ، وبدأ عهده بتغيير السياسة التى كان عليها أسلافه المأمون والمتعصم والواثق ، وهى الأخذ بيد المعتزلة ، فأمر الناس بترك النظر والمباحثة والجدال ، والتسليم بالحديث والسنّة . ونكب محمد ابن عبد الملك الزيات كما أبعد القاضى ابن أبى دؤاد . واستوزر عبيد الله بن يحيى خاقان ، وجالس الفتح بن خاقان وقد شعر المتوكل فى حكمه بثقل الأتراك ، فأراد أن ينتقم منهم ، وأن يرجع إلى العرب يحتمى بهم ويثير عصبيتهم ، فعزم على الإقامة بدمشق ، فتوجس القواد خيفة ، وشغبوا عليه ودسّوا له من يقتله فى المجلس ويقتل معه الفتح بن خاقان ، فكان أول خليفة من بنى العباس يقتل على تلك الصورة بأيدى الخدم . . .

ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلفاء يجنون ثمار غرس المعتصم ، فتسلط القواد على الخلفاء وأمسكوا بالزّمام وولّوا من شاءوا وعزلوا أو قتلوا من لم يخضع لسلطانهم حتى تعاقب على الخلافة فى خمسة عشر عاماً ستة خلفاء هم المنتصر والمستعين

والمعتز والمهتدى وابن المعتز والمعتمد ، وصارت الخلافة لعبة فى أيدى الأتراك حتى قال أحد الشعراء يرثى لتلك الحال :

خليفةٌ فى قفص بين وصيفٍ وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببّغا

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩) بدأ الخلفاء يستعيدون السلطة التى تفلتت من أيديهم وذلك بفضل الموفق أخى المعتمد الخليفة لما أبداه من حزم وشدة بأس ، فقد تولى بنفسه إمارة الجيوش ، وحارب الخارجين ، فانتصر على صاحب الزّنج وأخمد الثورة التى أشعلها فى الجنوب وهدد بها الدولة زمناً طويلا ولكن الأمور لم تستقر للدولة العباسية ، بل أخذت الأطماع تتهددها من الشرق والغرب . فالطاهريون ، والسامانيون ، والصفاريون يتنافسون للاستقلال بالشرق ، والروم يغيرون على الثغور ، والطولونيون ، ينتهزون الفرص فيستقلون ويكونون دولة بمصر ويستولون على بعض أجزاء أخرى يضمونها إليهم .

وهكذا عاش ابن قتيبة فى عصر أسماه المؤرخون العصر العباسى الثانى ، لأنه بدأ بانحلال الدولة العباسية ، وانتقال السلطة من أيدى الخلفاء إلى أيدى الأتراك ، ولأنه بدأ بانحسار سلطانهم عن بلاد كثيرة .

٢ – الحياة الاجتماعية

كان المجتمع البغدادى فى عصر بنى العباس يجمع خليطاً من العناصر المختلفة والأجناس المتباينة : كان فيه العرب ، والفرس ، والسريان ، والترك ، والروم ، ولم يكن العنصر العربى سائداً ، وإن كان يحتفظ لنفسه بمراكز القيادة والتوجيه ، وكانت الطبقة العليا كلها تقريباً منه ، ولكن كان يشاركه فى ذلك العنصر الفارسى الذى بدأ يتغلب ويأخذ لنفسه مكانة يزاحم فيها العرب على القيادة ، فكان منهم وزراء وقادة وأمراء وحكام كما كان من العرب ، وكان منهم علماء وحكماء وفقهاء وأدباء وشعراء ...

وظلت المنافسة بين العرب والفرس تأخذ طريقها إلى الحياة العباسية منذ بدء الدولة العباسية ، ومقتل أبى مسلم الخراسانى على يد الخليفة العباسى ، ثم ظهرت فى صورة عنيفة أخرى فى نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد . ولم يقف تغلغل الفرس بل ظلوا يناضلون وكان نفوذهم فى عصر المأمون كبيراً .

وقد روى طيفور أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال « يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، أما قضاعة فإنها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله عز وجل مذ بعث نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهم شارياً ، أعزب فعل الله بك »(١) .

ولم يكن الأتراك أقل نشاطاً من العرب والفرس ، ولكن نشاطهم كان متجهاً إلى جوانب بعينها ، فكان اهتمامهم مركزاً فى الجيش ، وفى القصر ، وكان القواد منهم يلعبون بمصاير الخلفاء ، وخدم القصر يأتمرون على أصحابه ؛ أما الجند فكانوا يثيرون الشغب بين العامة بما يرتكبون من السلب والنهب .

وكان إلى جانب تلك الطبقة العليا والوسطى الطبقات الدنيا مكونة من جماعات الرقيق والموالى وأبنائهم وممن كانوا خليطاً . نصفهم من الفرس أو الترك أو اليونان ، وكانوا يسمون الهجناء أو أبناء الإماء والسرارى . قال فيهم أحد الشعراء :

إن أولادَ السَّرارى كثروا يارَبِّ فينا
ربِّ أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا (٢)

وكانت كل جماعة من الأجناس المختلفة تمتهن مهنة برعت فيها . فاليونان عرفوا بالحكم والآداب ، والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب فلاحة ، فيكونوا مهنة ، ولا أصحاب زراعة لخوفهم من صغار

(١) « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢٢٦ .
(٢) « تاريخ العرب » لفيليب حتى ٢٥ ص ٤١٠ و « ضحى الإسلام » ١/ ٢٦ .

الجزية ... بل عرفوا بالاشتغال بقول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وقيافة الأثر وحفظ النسب ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، وعرف الأتراك بالحروب ، وعرف الهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة (١) . وقد تزاوجت هذه الخبرات كلها ، والتقت عقائد العرب والفرس واليونان والترك والهنود وامتزجت عاداتهم وتقاليدهم ، وكونت منها نسيجاً مميزاً تلونت عناصره واتحدت فى اتساق ونظام واحد جمع بينها الذوق الإسلامى .

واشتهرت بغداد بالترف الزائد والغنى وزخرف الحضارة ، وتغلغل هذا فى حياة الناس وكانت لحياة الترف دواعيها المختلفة ، فالخيرات المتدفقة على العاصمة من الأقاليم المختلفة ، والتجارة التى تغدو وتروح ، وتخترق قوافلها مختلف الأصقاع من الصين والهند شرقاً إلى بلاد الروم والمغرب غرباً ، وتمخر سفنها عباب البحار حاملة ما افتنّ فيه كل بلد وأبدع فأتى به إلى بغداد لتزين به قصور الخلفاء والأمراء وسادة القوم .

وكان من مظاهر ذلك الترف كثرة الجوارى والغلمان ، وهم من لوازم القصور ومجالس اللهو والسمر ، لذلك كثرت الجوارى فى بيوت الناس ، واختلفت أعدادهن وميزاتهن من جمال وأدب وغناء بتفاوت غنى أصحابهن . وقد اعتنى بالجوارى فى ذلك العصر ، فعلمن وثقفن ودرّبن على الغناء ، واشتهرت من بينهن كثيرات بقول الشعر والغناء .

واختلفت جنسيات الجوارى فكان منهن هنديات وسنديات ، ومكيات ومدنيات ، وسودانيات وحبشيات ، وتركيات وروميات وأرمنيات . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين بألوان الحمام(٢) .

ويروى أن المتوكل جمع فى قصره أربعة آلاف سرية من أجناس مختلفة . ودخل أحمد بن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزنرات قد تزيّن بالديباج الرومى ، وعلقن فى أعناقهن صلبان

(١) « ضحى الإسلام » ١/ ٢٢٦ ط ١٩٣٤ م .
(٢) « نفس المصدر » ١/ ٨٧ .